* تفسير روح المعاني/ الالوسي (ت 1270 هـ) مصنف و لم يتم تدقيقه بعد

{إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ}(1)

{إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللهِ} أي إعانته تعالى و إظهاره إياك على عدوك و هذا معنى النصر المعدي بعلى و فسر به لأنه أوفق بقوله تعالى: {وَ ٱلْفَتْحُ} و جوز أن يراد به المعدي بمن ومعناه الحفظ و الفتح يتضمن النصر بالمعنى الأول فحينئذٍ يكون الكلام مشتملاً على إفادة النصرين و الأول هو الظاهر و إذا منصوب بسبح و الفاء غير مانعة على ما عليه الجمهور في مثل ذلك وأبو حيان على أنها معمولة للفعل بعدها و ليست مضافة إليه و سيأتي إن شاء الله تعالى قول آخر و المراد بهذا النصر ما كان في أمر مكة من غلبته عليه الصلاة والسلام على قريش و ذكر النقاش عن ابن عباس أن النصر هو صلح الحديبية و كان في آخر سنة ست و أما الفتح فقد أخرج جماعة عنه و عن عائشة أن المراد به فتح مكة و روي ذلك عن مجاهد و غيره و صححه الجمهور و كان في السنة الثامنة و قال ابن شهاب لثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان على رأس ثمان سنين و نصف من الهجرة و خرج عليه الصلاة و السلام على ما أخرجه أحمد بسند صحيح عن أبي سعيد لليلتين خلتا من شهر رمضان و في رواية أخرى عن أحمد لثمان عشرة و في أخرى لثنتي عشرة و عند مسلم لست عشرة و قال الواقدي خرج صلى الله عليه و سلم يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان بعد العصر و ضعفه القسطلاني و كان المسلمون في تلك الغزوة عشرة آلاف من المهاجرين و الأنصار و طوائف من العرب و في الإكليل اثني عشر ألفًا و جمع بأن العشرة خرج بها عليه الصلاة و السلام من المدينة ثم تلاحق الألفان و الأولى أن يحمل النصر على ما كان مع الفتح المذكور فإن كانت السورة الكريمة نازلة قبل ذلك فالأمر ظاهر و تتضمن

الإعلام بذلك قبل كونه و هو من أعلام النبوة و إذا كانت نازلة بعده فقال الماتريدي في التأويلات أن إذا بمعنى إذ التي للماضي و مجيئها بهذا المعنى كثير في القرآن و عليه تكون متعلقة بمقدر ككمل الأمر أو أتم النعمة على العباد أو نحو ذلك لا بسبح لأن الكلام حينئذٍ نحو أضرب زيدًا أمس و قال بعض الأجلة هي لما يستقبل كما هو الأكثر في استعمالها و حينئذٍ لم يكن بد من أن يجعل شيء من ذلك مستقبلاً مترقبًا باعتبار أن فتح مكة كان أم الفتوح و الدستور لما يكون من بعده فهو مترقب باعتبار ما يدل عليه و إن كان متحققًا باعتباره في نفسه و جوز أن يكون الاستقبال باعتبار مجموع ما في حيز إذا فمنه ما هو مستقبل و هو ما تضمنه قوله سبحانه:

{وَ رَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا}(2)

{وَ رَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا} و لو باعتبار آخر داخل و هو مما لا بأس به إن لم يكن النزول بعد تمام الدخول و قيل المراد جنس نصر الله تعالى لرسوله عليه الصلاة و السلام و المؤمنين و جنس الفتح فيعم ما كان في أمر مكة زادها الله تعالى شرفًا و غيره و أمر الاستقبال عليه ظاهر و أيًا ما كان فالمراد بالمجيء الحصول و هو حقيقة فيه على ما يقتضيه ظاهر كلام الراغب و قال القاضي مجاز و الظاهر أن الخطاب في رأيت للنبي عليه الصلاة و السلام و الرؤية بصرية أو علمية متعدية لمفعولين و الناس العرب و دين الله ملة الإسلام التي لا دين له تعالى يضاف إليه غيرها و الأفواج جمع فوج و هو على ما قال الراغب الجماعة المارة المسرعة و يراد به مطلق الجماعة قال الحوفي و قياس جمعه أفوج و لكن استثقلت الضمة على الواو فعدل إلى أفواج و في «البحر» قياس فعل صحيح العين أن يجمع على أفعل لا على أفعال و معتل العين بالعكس فالقياس فيه أفعال كحوض و أحواض و شذ فيه أفعل كثوب و

أثوب و نصب أفواجًا على الحال من ضمير يدخلون و أما جملة يدخلون فهي حال من الناس على الاحتمال الأول في الرؤية و مفعول ثان على الاحتمال الثاني فيها و كونها حالاً أيضًا بجعل رأيت بمعنى عرفت كما قال الزمخشري تعقبه أبو حيان بقوله لا نعلم أن رأيت جاءت بمعنى عرفت فيحتاج في ذلك إلى استثبات و المراد بدخول الناس في دينه تعالى أفواجًا أي جماعات كثيرة إسلامهم من غير قتال و قد كان ذلك بين فتح مكة و موته عليه الصلاة و السلام و كانوا قبل الفتح يدخلون فيه واحدًا واحدًا و اثنين اثنين أخرج البخاري عن عمرو بن سلمة قال لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم و كانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة فيقولون دعوه و قومه فإن ظهر عليهم فهو نبي و عن الحسن قال لما فتح رسول الله صلى الله عليه و سلم مكة قالت الأعراب أما إذ ظفر بأهل مكة و قد أجارهم الله تعالى من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان فدخلوا في دين الله تعالى أفواجًا و قال أبو عمر بن عبد البر لم يتوف رسول الله صلى الله عليه و سلم و في العرب رجل كافر بل دخل الكل في الإسلام بعد حنين و الطائف منهم من قدم و منهم من قدم وافده و تأول ذلك ابن عطية فقال، المراد و الله تعالى أعلم، العرب عبدة الأوثان فإن نصارى بني تغلب ما أراهم أسلموا في حياة رسول الله صلى الله عليه و سلم و لكن أعطوا الجزية و نص بعضهم على أنهم لم يسلموا إذ ذاك فالمراد بالناس عبدة الأوثان من العرب كأهل مكة و الطائف و اليمن و هوازن و نحوهم و قال عكرمة و مقاتل المراد بالناس أهل اليمن وفد منهم سبعمائة رجل و أسلموا و احتج له بما أخرجه ابن جرير من طريق الحصين بن عيسى عن معمر عن الزهري عن أبي حازم عن أبي عباس قال بينما رسول الله صلى الله عليه و سلم في المدينة إذ قال: الله أكبر الله أكبر جاء نصر الله و الفتح و جاء أهل اليمن قيل يا رسول الله و ما أهل اليمن قال قوم رقيقة قلوبهم لينة

طاعتهم الإيمان يمان و الفقه يمان و الحكمة يمانية و أخرجه أيضاً من طريق عبد الأعلى عن معمر عن عكرمة مرسلاً و قوله عليه الصلاة و السلام الإيمان يمان جاء في حديث أخرجه البخاري و مسلم و الترمذي عن أبي هريرة مرفوعًا بلفظ

"أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة و الين قلوبًا الإيمان يمان و الحكمة يمانية" فقيل قال صلى الله عليه و سلم ذلك لأن مكة يمانية و منها بعث صلى الله عليه و سلم و فشأ الإيمان و قيل أراد عليه الصلاة و السلام مدح الأنصار لأنهم يمانون و قد تبوؤا الدار و الإيمان و قول ابن عباس في الخبر في المدينة يعارض قول من قال إن ذلك إنما قاله صلى الله عليه و سلم بتبوك و كان بينه و بين اليمن مكة و المدينة و هما دار الإيمان و مظهراه و يحتمل تكرر القول و الظاهر أنه ثناء على أهل اليمن لإسراعهم إلى الإيمان و قبولهم له بلا سيف و يشمل الأنصار من أهل اليمن و غيرهم فكان الإيمان كان في سنخ قلوبهم فقبلوه كما أنهى إليهم كمن يجد ضالته و مثله في الثناء عليهم قوله عليه الصلاة و السلام **"أجد نفس ربكم من قبل اليمن"** و قال عصام الدين يحتمل أن يكون الخطاب في رأيت الناس عامًا لكل مؤمن ثم قال و مما يختلج في القلب أن المناسب بقوله تعالى يدخلون في دين الله أفواجًا أن يحمل قوله سبحانه و الفتح على فتح باب الدين عليهم انتهى و كلا الأمرين كما ترى و قرأ ابن عباس كما أخرج أبو عبيدة و ابن المنذر عنه إذا جاء فتح الله و النصر و قرأ ابن كثير في رواية يدخلون بالبناء للمفعول.

{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ ٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}(3)

{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} أي فنزهه تعالى بكل ذكر يدل على التنزيه حامدًا له جل و علا زيادة في عبادته و الثناء عليه سبحانه لزيادة انعامه سبحانه عليك فالتسبيح التنزيه لا التلفظ بكلمة سبحان الله و الباء للملابسة و الجار و المجرور في موضع الحال و الحمد مضاف إلى المفعول و المعنى على الجمع بين تسبيحه تعالى و هو تنزيهه سبحانه عما لا يليق به عز و جل من النقائص و تحميده و هو إثبات ما يليق به تعالى من المحامد له لعظم ما أنعم سبحانه به عليه عليه الصلاة و السلام و قيل أي نزهه تعالى عن العجز في تأخير ظهور الفتح و احمده على التأخير وصفه تعالى بأن توقيت الأمور من عنده ليس إلا لحكمة لا يعرفها إلا هو عز و جل و هو كما ترى و أيد ذلك بما في الصحيحين عن مسروق عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يكثر أن يقول في ركوعه و سجوده سبحانك اللهم ربنا و بحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن تعني هذا مع قوله تعالى: {وَ ٱسْتَغْفِرْهُ} أي أطلب منه أن يغفر لك و كذا بما في مسند الإمام أحمد و صحيح مسلم عن عائشة أيضًا قالت كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يكثر في آخر أمره من قول سبحان الله و بحمده استغفر الله و أتوب إليه و قال أن ربي كان أخبرني أن سأرى علامة في أمتي و أمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده و استغفره الخ و روي ابن جرير من طريق حفص بن عاصم عن الشعبي عن أم سلمة قالت كان رسول الله صلى الله عليه و سلم في آخر أمره لا يقوم و لا يقعد و لا يذهب و لا يجيء إلا قال سبحان الله و بحمده قال إني أمرت بها و قرأ السورة و هو غريب و في المسند عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه و سلم

{إذا جاء نصر الله و الفتح}

[الفتح:1] كان يكثر إذا قرأها و ركع أن يقول سبحانك اللهم ربنا و بحمدك اللهم

اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم ثلاثًا و جوز أن تكون الباء للاستعانة و الحمد مضاف إلى الفاعل أي سبحه بما حمد سبحانه به نفسه قال ابن رجب إذ ليس كل تسبيح بمحمود فتسبيح المعتزلة يقتضي تعطيل كثير من الصفات و قد كان بشر المريسي يقول سبحان ربي الأسفل تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا و الظاهر الملابسة و جوز أن يكون التسبيح مجازًا عن التعجب بعلاقة السببية فإن من رأى أمرًا عجيبًا قال سبحان الله أي فتعجب لتيسير الله تعالى ما لم يخطر ببالك و بال أحد من أن يغلب أحد على أهل الحرم و أحمده تعالى على صنعه و هذا التعجب تعجب متأمل شاكر يصح أن يأمر به و ليس الأمر بمعنى الخبر بأن هذه القصة من شأنها أن يتعجب منها كما زعم ابن المنير و التعليل بأن الأمر في صيغة التعجب ليس أمراً بين السقوط نعم هذا الوجه ليس بشيء و الأخبار دالة على أن ذلك أمر له صلى الله عليه و سلم بالاستعداد للتوجه إلى ربه تعالى و الاستعداد للقائه بعد ما أكمل دينه و أدى ما عليه من البلاغ و أيضًا ما ذكرناه من الآثار آنفًا لا يساعد عليه و قيل المراد بالتسبيح الصلاة لاشتمالها عليه و نقله ابن الجوزي عن ابن عباس أي فصل له تعالى حامدًا على نعمه و قد روي صلى الله عليه و سلم لما دخل مكة صلى في بيت أم هانىء ثمان ركعات و زعم بعضهم أنه صلاها داخل الكعبة و ليس بالصحيح و أيًا ما كان فهي صلاة الفتح و هي سنة و قد صلاها سعد يوم فتح المدائن و قيل صلاة الضحى و قيل أربع منها للفتح و أربع للضحى و على كل ليس فيها دليل على أن المراد بالتسبيح الصلاة و الأخبار أيضًا تساعد على خلافه و استغفار صلى الله عليه و سلم لأنه كان دائمًا في الترقي فإذا ترقى إلى مرتبة استغفر لما قبلها و قيل مما هو في نظره الشريف خلاف الأولى بمنصبه المنيف و قيل عما كان من سهو و لو قبل النبوة و قيل لتعليم أمته صلى الله عليه و سلم و قيل هو استغفار لأمته عليه الصلاة و السلام أي

واستغفره لأمتك و جوز بعضهم كون الخطاب في رأيت عاما و قال ههنا يجوز حينئذ أن يكون الأمر بالاستغفار لمن سواه عليه الصلاة و السلام و إدخاله صلى الله عليه و سلم في الأمر تغليب و هذا خلاف الظاهر جدًّا و أنت تعلم أن كل أحد مقصر عن القيام بحقوق الله تعالى كما ينبغى و أدائها على الوجه اللائق بجلاله جل جلاله و عظمته سبحانه و إنما يؤديها على قدر ما يعرف و العارف يعرف أن قدر الله عز و جل أعلى و أجل من ذلك فهو يستحى من عمله و يرى أنه مقصر و كلما كان الشخص بالله تعالى أعرف كان له سبحانه أخوف و برؤية تقصيره أبصر و قد كان كهمس يصلي كل يوم ألف ركعة فإذا صلى أخذ بلحيته ثم يقول لنفسه قومي يا مأوى كل سوء فو الله ما رضيتك لله عز و جل طرفة عين و عن مالك بن دينار لقد هممت أن أوصي إذا مت أن ينطلق بي كما ينطلق بالعبد الآبق إلى سيده فإذا سألني قلت يا رب أني لم أرض لك نفسي طرفة عين فيمكن أن يكون استغفاره عليه الصلاة و السلام لما يعرف من عظيم جلال الله تعالى و عظمته سبحانه فيرى أن عبادته و إن كانت أجل من عبادة جميع العابدين دون ما يليق بذلك الجلال و تلك العظمة التي هي وراء ما يخطر بالبال فيستحي و يهرع إلى الاستغفار و قد صح أنه عليه الصلاة و السلام كان يستغفر الله في اليوم و الليلة أكثر من سبعين مرة و للإشارة إلى قصور العابد عن الاتيان بما يليق بجلال المعبود و إن بذل المجهود شرع الاستغفار بعد كثير من الطاعات فذكروا إنه يشرع لمصلي المكتوبة أن يستغفر عقبها ثلاثًا و للمتهجد في الأسحار أن يستغفر ما شاء الله تعالى و للحاج أن يستغفر بعد الحج فقد قال تعالى ثم

{أفيضوا من حيث أفاض الناس و استغفروا الله إن الله غفور رحيم}

[البقرة:199] و روي أنه يشرع لختم الوضوء و قالوا يشرع لختم كل مجلس و قد كان صلى الله عليه و سلم يقول: إذا قام من المجلس " **سبحانك اللهم و بحمدك استغفرك و أتوب إليك** " ففي الأمر بالاستغفار رمز من هذا الوجه على ما قيل إلى ما فهم من النعي و المشهور أن ذلك للدلالة على مشارفة تمام أمر الدعوة و تكامل أمر الدين و الكلام و إن كان مشتملاً على التعليق وتقديم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار قيل على طريقة النزول من الخالق إلى الخلق كما قيل ما رأيت شيئًا إلا و رأيت الله تعالى قبله لأن جميع الأشياء مرايا لتجيله جل جلاله و ذلك لأن في التسبيح و الحمد توجهًا بالذات لجلال الخالق و كماله و في الاستغفار توجهًا بالذات لحال العبد و تقصيراته و يجوز أن يكون تأخير الاستغفار عنهما لما أشرنا إليه في مشروعية تعقيب العبادة بالاستغفار و قيل في تقديمها عليه تعليم أدب الدعاء و هو أن لا يسأل فجأة من غير تقديم الثناء على المسؤول منه {إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} أي منذ خلق المكلفين أي مبالغًا في قول توبتهم فليكن المستغفر التائب متوقعًا للقبول فالجملة في موضع التعليل لما قبلها و اختيار توابا على غفارًا مع أنه الذي يستدعيه استغفره ظاهرًا للتنبيه كما قال بعض الأجلة على أن الاستغفار إنما ينفع إذا كان مع التوبة و ذكر ابن رجب أن الاستغفار المجرد هو التوبة مع طلب المغفرة بالدعاء و المقرون بالتوبة فاستغفر الله تعالى و أتوب إليه سبحانه هو طلب المغفرة بالدعاء فقط و قال أيضًا أن المجرد طلب وقاية شر الذنب الماضي بالدعاء و الندم عليه و وقاية شر الذنب المتوقع بالعزم على الإقلاع عنه و هذا الذي يمنع الإصرار كما جاء ما أصر من استغفر و لو عاد في اليوم سبعين مرة و لا صغيرة مع الإصرار و لا كبيرة مع الاستغفار و المقرون بالتوبة مختص بالنوع الأول فإن لم يصحبه الندم على الذنب الماضي فهو دعاء محض و إن صحبه ندم فهو

توبة انتهى و الظاهر أن ذلك الدعاء المحض غير مقبول و فيه من سوء الأدب مع الله تعالى ما فيه و قال بعض الأفاضل إن في الآية احتباكًا و الأصل و استغفره إنه كان غفارًا و تب إليه إنه كان توابًا و أيد بما قدمناه من حديث الإمام أحمد و مسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها و حمل الزمان الماضي على زمان خلق المكلفين هو ما ارتضاه غير واحد و قال الماتريدي في «التأويلات» أي لم يزل توابًا لا أنه سبحانه تواب بأمر اكتسبه و أحدثه على ما يقوله المعتزلة من أنه سبحانه صار توابًا إذ أنشأ الخلق فتابوا فقبل توبتهم فأما قبل ذلك فلم يكن توابًا ورد عليه بأن قبول التوبة من الصفات الإضافية و لا نزاع في حدوثها و اختار بعضهم ما ذهب إليه الماتريدي على أن المراد أنه تعالى لم يزل بحيث يقبل التوبة و مآله قدم منشأ قبولها من الصفات اللائقة به جل شأنه و في ذلك مما يقوي الرجاء به عز و جل ما فيه و صح لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم و لجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم و في الاستغفار خير الدنيا و الآخرة أخرج الإمام أحمد من حديث عطية عن أبي سعيد مرفوعًا من قال حين يأوى إلى فراشه استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم و أتوب إليه غفر له ذنوبه و إن كانت مثل زبد البحر و إن كانت مثل رمل عالج و إن كانت عدد ورق الشجر و أخرج أيضاً من حديث ابن عباس

"من أكثر من الاستغفار جعل الله تعالى له من كل هم فرجًا" و أنا أقول سبحان الله و بحمده استغفر الله تعالى و أتوب إليه و اسأله أن يجعل لي من كل هم فرجًا و من كل ضيق مخرجًا بحرمة كتابه و سيد أحبابه صلى الله تعالى عليه و سلم